

الفصل الثانى

اعتناق الخزر لليهودية

نتناول فى هذا الفصل اعتناق الخزر للدين اليهودى، وهو حادث تاريخى فاصل، واتخاذهم إياه دينًا للدولة. وقد قال المؤرخ الإنجليزى المشهور بيورى فى ذلك: إن اعتناق الخزر لدين يهودا الخالص حدث فريد فى التاريخ. فماذا كان الدافع إلى هذا الحدث الفريد؟.

فى أوائل القرن التاسع الميلادى كان العالم يستقطب قوتين عظيمين تمثلان المسيحية والإسلام. وكانت إمبراطورية الخزر تمثل القوة الثالثة التى أثبتت أنها تقف منهما موقف النذ للند عدوة كانت أو حليفة. على أن دولة الخزر لم تكن تستطيع أن تحافظ على استقلالها بالدخول فى المسيحية أو الإسلام، ذلك أن اختيار عقيدة منهما يخضعها إلى الإمبراطور الرومانى أو الخليفة فى بغداد.

ولم تتردد الإمبراطورية الرومانية ولا الخلافة فى بذل الجهود لتنصير الخزر أو حملهم على الإسلام، وإنما انتهى ذلك إلى تبادل العجاملات الدبلوماسية، والتصاهر بين الحكام، وانتقال التحالف من

جانب إلى جانب بحسب ما تقضى به المصلحة دون سواها. واعتمدت مملكة الخزر على قوتها هي والقبائل الخاضعة لنفوذها، واستقر بها العزم على أن تحافظ على موقعها قوة ثالثة وزعيمة لأمم الفياض التي لم ترتبط بدين.

وفى هذه الأثناء تعلم الخزر من صلاتهم الوثيقة ببوزنطة والخلافة أن عقيدتهم الشامانية البدائية عقيدة همجية عفى عليها الزمن إذا هي قورنت بديانات التوحيد الكبرى، ثم هي عاجزة عن أن تضفى على زعماء الخزر السلطان الروحي والشرعي الذي ينعم به الخليفة والإمبراطور، ولذلك آثر الخزر أن يختاروا ديناً آخر غير النصرانية والإسلام، ومع ذلك فهو الأساس لكل منهما.

والحق أن اعتناق اليهودية كان يتطلب عملاً من أعمال العبقرية. على أن المصادر العربية والعبرية فى تاريخ هذا الاعتناق، وإن اختلفت فى التفاصيل، تتفق فى مذهبها فى تعليه كما أسلفنا، وكانت اليهودية ديناً له مقامه بين الأسفار المقدسة التى يعترف بها المسلمون والسيحيون، وهو يرفع ملك الخزر فوق الهمج الوثنيين، ويؤمنه من تدخل الخليفة والإمبراطور، ولكنه لم يأخذ بتعصب العقيدة اليهودية، فقد أباح لجماهير شعبه أن يظلوا على وثنيتهم ويعبدوا أصنامهم.

صحيح أن تحول البلاط الخزرى إلى اليهودية كان الدافع إليه سياسياً، إلا أنه ليس من المعقول أنه اعتنق هذا الدين بين يوم وليلة

وانقاد إليه انقياداً أعمى دون أن يعرف شعائره وفروضه. والحق أن الخزر كانوا على معرفة وثيقة باليهود وشعائر دينهم قبل ذلك بقرن على الأقل، لأن اللاجئيين الذين فروا بدينهم من اضطهاد بوزنطة كانوا يتقاطرون على بلاد الخزر حشوداً إثر حشود. وكان هذا هو الحال بدرجة أقل بالنسبة للمهاجرين من آسية الصغرى التى فتحها العرب. لقد كانت بلاد الخزر إذن الماوى الطبيعى للخروج اليهودى تحت وصاية الحكم البوزنطى والاضطهاد الدينى فى عهد الأباطرة يوستينيانوس الأول، وهرقل، وليو الثالث ويازل وليو الرابع ورومانوس. وقد قال المؤرخ العربى الكبير السعوى فى ذلك:

«وفى هذه المدينة (أى إتل الخزر) خلق من المسلمين والنصارى واليهود وجاهلية، وأما اليهود فائلك وحاشيته والخزر من جنسه. وقد كان تهود ملك الخزر فى خلافة الرشيد، وقد انضاف إليه خلق من اليهود وردوا إليه من سائر أمصار المسلمين ومن بلاد الروم، وذلك أن ملك الروم فى وقتنا هذا - وهو سنة ٣٢٢ - وهو أرمنيوس نقل من كان فى ملكه من اليهود إلى دين النصرانية وأكرههم. فهرب خلق من اليهود من أرض الروم إلى أرض الخزر».

والعبارتان الأخيرتان من قول السعوى - تشيران إلى حوالت وقعت قبل تحول الخزر إلى اليهودية، وتكشف لنا عن مبلغ

اضطهادهم. على أن كثيراً من اليهود احتملوا التعذيب، ومن لم
يحتمله منهم تنصر ثم عاد بعد ذلك إلى دينه.



ومن المعروف أن مهاجري اليهود إلى بلاد الخزر قد جلبوا معهم
فنوناً وحرفاً بوزنطية أرفع مما كنا نجده عند الخزر في ميدان
الزراعة والتجارة كما جلبوا حروف الهجاء العبرية المربعة. ونحن
لا نعلم نوع الكتابة التي جرى عليها الخزر قبل ذلك، ولكن كتاب
الفهرست لابن النديم يقول إن الخزر كانوا يستعملون حروف
الهجاء العبرية، وانتشرت هذه الكتابة العبرية فبلغت جيران الخزر من
الشعوب الصقلبية. وهكذا أدى تحول الخزر إلى اليهودية بما يتسم به
من دهاء سياسى إلى تطورات ثقافية جاءت في ركابه، واقترن
اضمحلال دولة الخزر بعد ذلك بثلاثة قرون بفورات متكررة من
الإرهابات الصهيونية اقترنت بأسماء منتحلين للمسيح المنتظر
أمثال دافيد له روا (بطل رواية كتبها دزرائيلى) يقودون حروبنا
صليبية على طريقة دون كيخوته في سبيل فتح أورشليم من
جديداً

وظروف تحول الخزر إلى اليهودية قد غشتها الأساطير، ولكن
الأوصاف التي جاء بها العرب والعبريون واحدة في سماتها الأساسية.

وقد سبق أن أوردنا قول المسعودى في ذلك، وقد ختم قوله هذا
بالإشارة إلى كتاب له سابق تضمن وصفاً لهذه الظروف وفقد هذا

الكتاب، إلا أنه بقى مادلاً فى كتابين: الأول الدمشقى وهو يردد أن الإمبراطور البيزنطى فى أيام هارون الرشيد قد أجب اليهود على الهجرة، وقد قدم هؤلاء المهاجرون إلى بلاد الخزر فوجدوا جنساً فطنا وإن كان غير متعلم، فعرضوا عليه دينهم. ووجد أهل البلاد أن هذا الدين أفضل من دينهم فاعتنقوه.

والكتاب الثانى هو البكرى الذى تحدث فى مؤلفه «المسالك والممالك» عن هذه الظروف تفصيلاً فقال: إن السبب فى اعتناق ملك الخزر اليهودية - وكان من قبل وثنياً - هو أنه كان قد تنصر، ثم تبين كذب النصرانية وأهمه الأمر فراح يناقشه مع أحد كبار عماله، فقال له هذا العامل إن أصحاب الكتب المقدسة ثلاث طوائف، وأشار عليه بأن يدعو أصحاب هذه الكتب ويتبع من كان منهم على الحق، وأرسل الملك فى طلب أسقف من النصارى. وكان فى صحبة الملك يهودى بارع الحجة فسأل الأسقف ما قولك فى موسى ابن عمران والتوراة التى نزلت عليه؟ فأجابته الأسقف. إن موسى رسول والتوراة تخبر بالحق. وهنا وجه اليهودى حديثه إلى الملك قائلاً إن الأسقف قد سلم بصدق دينى فاسأله إذن عن دينه. فسأله الملك فأجاب بأن عيسى المسيح هو ابن مريم وهو الكلمة، وقد كشف عن أسرار اسم الله. وعندئذ قال اليهودى لملك الخزر إن الأسقف يدعو إلى دين لا علم لى به، على أنه يسلم بدينى. غير أن النصرانى لم يكن قوياً فى الأدلاء بحجته فأرسل الملك فى طلب مسلم، فسيروا إليه

فقيها متمكنا بارعا يجيد الجدل، ولكن اليهودى استاجر رجلا دس له السم وهو سائر فى رحلته إلى الملك، ففضى نحيبه. وهكذا نجح اليهودى فى استمالة الملك إلى دينه حتى اعتنق اليهودية.

ولا شك أن مؤرخى العرب قد رزقوا موهبة إضفاء الخيال على الوقائع، وهذه القصة تتضمن - كما قال المؤرخ بيورى المشهور - أن بلاط الخزر كان متأثرا تأثرا قويا باليهودية قبل أن يتهود رسميا، ذلك أن رجل الدين المسيحى ورجل الدين المسلم قد أرسل الملك فى طلبهما، أما اليهودى فكان بالفعل فى صحبته.



وننتقل الآن من المصادر العربية الكبرى التى تحدثت عن تهود الخزر، إلى المصدر اليهودى الأساسى، وهنا المصدر هو ما يعرف باسم «الرسائل الخزرية» وهى رسائل تبودلت بالعبرية بين حسداى بن شربوت، كبير الوزراء اليهودى لخليفة قرطبة والملك يوسف ملك الخزر، وحجبة هذه الرسائل موضع خلاف، وإن كنا الآن نسلم بها بعامة مع الاعتراف بجواز أن تكون فيها أخطاء وقع فيها النساخ المتأخرون.

والظاهر أن هذه الرسائل تبودلت بعد سنة ٩٥٤م وقبل سنة ٩٦١م أى حوالى الوقت الذى كتب فيه السعودى كتابه. وكان حسداى هذا الع شخصية فى «العصر الذهبى» (٩٠٠ - ١٣٠٠م) لليهود فى الأندلس.



حتى سنة ٩٢٩م استطاع عبد الرحمن الثالث من البيت الأموي الحاكم أن يوحد أسلاك عرب المغرب في النواحي الجنوبية والشمالية من شبه الجزيرة الأيبيرية ويخضعها لسلطانه وأقام الخلافة العربية، وأصبحت قسبة ملكه قرطبة مفخرة الأندلس العربية، ومونلا للحضارة الأوربية، وقامت بها مكتبة من أربعمائة ألف مجلد. أما حسداى فقد ولد في قرطبة سنة ٩١٠ لأسرة يهودية بارزة، واستطاع أن يثير انتباه الخليفة بممارسته للطب ومعرفته ببعض الأدوية المشهورة. فاتخذه عبد الرحمن طبيباً يطب لبلاطه ووثق ثقة عظيمة في حكمته حتى دعاه أول الأمر لتنظيم أموال الدولة ثم أقامه وزيراً لخارجيته يدلى بدلوه في مسارب المعاملات الدبلوماسية العقدة للخلافة مع بوزنطة، والإمبراطور الألماني أوتو وقشتالة ونبرة وارغون وغير ذلك من الممالك النصرانية في شمالي إسبانيا، ومع مشاغله الجملة هذه وجد وقتاً لنقل الكتب الطبية إلى العربية ومراسلة أحبار بغداد والحكم بين النحويين والشعراء اليهود.

ومن الواضح أن هذا الرجل كان يهودياً متنوراً غيوراً على دينه، استغل صلاته الدبلوماسية في جمع المعلومات عن الجماعات اليهودية المتفرقة في شتى أنحاء العالم والتدخل لمصلحتهم كلما وجد إلى ذلك سبيلاً. وقد عنى حسداى خاصة باضطهاد اليهود في الإمبراطورية البوزنطية في عهد رومانوس.. ومن حسن توفيقه أنه

كان له نفوذ كبير في البلاط البوزنطى ذلك البلاط الذى كان مهتمًا اهتمامًا حيويًا بضمان حياد قرطبة في أثناء الحملات البوزنطية على المسلمين في الشرق، وانتهز حسداى الذى كان يقود المفاوضات الدائرة بين الأمويين في الأندلس وبوزنطة، الفرصة للتدخل في مصلحة الشعب اليهودى في بوزنطة، وقد حقق نجاحًا في ذلك.

ويروى حسداى نفسه أنه سمع أول ما سمع بوجود مملكة يهودية مستقلة من بعض تجار من خرسان ببلاد فارس، فشك في صدق روايتهم. وسأل من بعد أعضاء بعثة ديبلوماسية بوزنطية أرسلت إلى قرطبة، فأكدوا رواية هؤلاء التجار وزودوه بقدر كبير من الوقائع المفصلة عن مملكة الخزر بما في ذلك ملكهم الذى كان يحكم وقت ذاك وهو يوسف. ولذلك عزم حسداى على إرسال بعض رجال البلاط إلى الخزر يحملون رسالة إلى هذا الملك. وقد تضمنت هذه الرسالة عدة أسئلة عن دولة الخزر وشعبها وأسلوب حكمها، وقواتها المسلحة وما إلى ذلك، واشتملت الأسئلة أيضًا على سؤال عن أية قبيلة من القبائل الاثنتى عشرة ينتسب الملك. ويبدو من هذا أن حسداى ظن أن الخزر اليهود قد خرجوا من فلسطين شأنهم شأن يهود الأندلس، وأنهم ربما كانوا يمثلون قبيلة من القبائل المفقودة. ولا شك في أن يوسف لم يكن ينتسب إلى أية قبيلة من هذه القبائل لأنه لم يكن يهودى الأصل والأجداد. وقد أتى يوسف في رده على

حسدای بنسب من نوع آخر، ولكنه صرف همه فى رسالته إلى موافاة الوزير اليهودى بوصف مفصل، وإن يكن أسطورياً للدخول الخزر فى اليهودية الذى حدث قبل ذلك بقرنين من الزمان والظروف التى أنت إليه.

ويقول الملك يوسف فى رسالته إلى حسداى:

«إنه تراءى له فى أحلامه ملك نصحه بأن يعبد الإله الواحد الحق فيجزيه بمباركة أولاده والإكثار من نسله والظفر بأعدائه وجعل مملكته تدوم حتى نهاية هذا العالم» وهذا بطبيعة الحال من وحي القصة الواردة فى سفر التكوين؛ ويتضمن أن الخزر أيضاً قد زعموا أنهم «شعب مختار» قد عاهدوا الرب، ولو أنهم لم يكونوا من نسل إبراهيم، ولكن يوسف عند هذا الحد من القصة يتجه اتجاهها آخر غير متوقع، إذ قال إن الملك بولان كانت نيته قد صحت على أن يطيع الله، غير أنه يثير مشكلة فى هذا السبيل.

«وأنت تعلم يارب ما يكنه قلبى وقد تغلغت فيما تنطوى عليه جوانحى فعلمت أننى عليك توكلت، ولكن قومى الذين أتولى أمرهم قد نزععت عقولهم إلى الشرك ولست أدرى أيؤمنون بى أم لا يؤمنون؟. وإنى إذ أجد فى وجهك الرضا والرحمة، فإنى أسالك أن تتجلى أيضاً للأمر الأكبر حتى تجعله يمدنى بتأييد».

وأجاب المولى الباقي سؤل بولان فتجلى لهذا الأمير فى الحلم،
فما استيقظ من نومه فى الصباح حتى شخص إلى الملك وأخبره
بما رأى.

ولم يرد فى سفر التكوين ولا فى أخبار العرب عن اعتناق الخزر
للإهودية شىء عن وجود أمير أكبر يجب الحصول على رضاه،
ولا شك أن ذلك يدل على أنه كان على الخزر عاهلان. والأمير
الأكبر هو فيما يبدو «الأمير» هو القاغان.

ويمضى يوسف فى رسالته فيروى كيف تجلى له الملك مرة
أخرى فى منامه ودعاه إلى إقامة مكان للعبادة يحل فيه الرب ذلك
أن «السماء والسموات التى فوقها لا تتسع لى». ورد بولان عليه فى
استحياء بأنه لا يملك الذهب ولا الفضة اللذين يعينانه على القيام
بذلك ولو أن الواجب والرغبة يقتضيان النهوض بهذا «العمل»
وهناك أكد له الملك أن كل ما يجب على بولان فعله هو أن يقود
جيوشه إلى دريال وأردبيل فى أرمينية حيث يوجد كنز من
الذهب والفضة ينتظره. وهذا ينطبق على حملة بولان أو بول خان
التى سبقت دخول الخزر فى الإهودية كما يتفق مع المصادر
العربية التى روت أنه كان للخزر مناجم للذهب فى القوقاز. وفعل
يوسف ما أشار به عليه الملك وعاد من حملته محملاً بالغانم وأقام
هيكلاً مقدساً مجهراً بصندوق مبارك (تابوت العهد) وشمعدان،
ومذبح وأدوات مقدسة حفظت إلى اليوم ولا تزال بعد فى حوزتى
(أى فى حوزة الملك يوسف).

وتتجمع رسالة الملك يوسف بين الحقيقة والخيال، وهى إلى هذا الحد تعد مدخلا إلى القصة الحقيقية لدخول الخزر فى اليهودية. وهكذا نجد بين أيدينا مائدة مستديرة على غرار ما ذكر السعودى مع فارق هو أن المسلم لم يدس له السم من قبل.



هذا فيما يتعلق باعتناق الخزر اليهودية. ثم نتساءل عما جاء فى الرسائل الخزرية المشهورة بعد ذلك. ونبدأ برسالة حسداى أولا فنجدها تتضمن حديثاً عن ازدهار إسبانيا فى عهد العرب، وأن اليهود عاشوا فى كنفها فى رخاء وعز لم يعهدوا لهما مثيلا من قبل، ثم يتحدث حسداى عن الكيفية التى عرف بها الملكة اليهودية المعهودة من تجار خراسان، ثم من رسل بوزنطة الذين زادوه تفصيلا عن شئونها. ولا شك فى أن المعلومات التى ذكرها حسداى فى رسالته عن الملك يوسف كان الغرض منها إغراء الملك بالإفاضة فى ذكر أحوال مملكته فى رده على حسداى.

وذكر حسداى بعد ذلك محاولته السابقة لمعرفة أخبار دولة الخزر وبلاط ملكها يوسف، وكيف بعث رسولا بتعليمات تقتضيه أن يمضى فى رحلته حتى يبلغ بلاط الخزر، ولكن الرسول بلغ القسطنطينية فحسب حيث عومل معاملة طيبة ولكنه منع من المضى فى رحلته، ذلك أن الإمبراطور البيوزنطى لم يكن يحب أن

يبسر قيام تحالف بين بلاد الخزر وخلافة قرطبة التى كان وزيرها الأكبر يهودياً، ومن ثم عاد رسول حسداى إلى الأندلس دون أن يتم رسالته.

ومضى حسداى فى رسالته يسأل طائفة من الأسئلة المباشرة تكشف عن حرصه على الاستزادة من المعلومات عن كل وجه من وجوه الحياة فى أرض الخزر وجغرافيتها وشعائرها وموقفها من يوم السبت، والفقرات الأخيرة من هذه الرسالة تباين كل المباشرة الفقرات التى استهلكت بها:

«إنى لأشعر بحافز يدفعنى إلى معرفة الحقيقة: هل يوجد حقاً مكان على ظهر الأرض يستطيع فيه اليهود المنهكون أن يحكموا انفسهم فلا يخضعون لأحد. لو قبض لى أن أعلم بوجود هذا المكان حقاً وصدقاً لما ترددت فى التضحية بكل ألقاب الشرف التى أحملها، والاستقالة من منصبى الجليل تاركاً أهلى وماضياً فى رحلتى عبر الجبال وأقطع السهول ضارباً فى اليابسة، خائضاً الماء، حتى أبلغ البلاد التى يحكمها مولاي الملك (اليهودى).. ولى بعد رجاء آخر هو أن أعرف هل لدى مولاي علم بالتاريخ المحتمل للهجرة الأخيرة (أى ظهور المسيح) التى ننتظرها ونحن نجوب الأرض من بلد إلى بلد. ويحق علينا - فى ذلتنا وخضوعنا اللذين نعانى منهما فى تشردنا - أن نصغى فى صمت إلى أولئك الذين يقولون.. لكل أمة أرضها وأنتم دون سواكم لا تملكون حتى الشبح من أرض على وجه هذه البسيطة».

وكان رد الملك يوسف على رسالة حسداى أقل عاطفة وشجنا مما بدا فى رسالة حسداى إليه. وقد فسر ذلك بأن العلم والثقافة لم يكونا سائدين بين يهود الفولجا، وإنما كانا يلتزمان على أنهار الأندلس.

وتبدأ رسالة الملك يوسف بتحيات فخمة رنانة، ثم ترصد مطالب حسداى منوهة فى فخر واعتزاز بأن مملكة الخزر تكذب من يقولون إن «صولجان يهوذا قد سقط إلى الأبد من أيدي اليهود، ومن يقولون: إنه لا مكان على وجه البسيطة لمملكة خاصة بهم».



ثم يعقب يوسف بذكر مثل قومه، وهو بالرغم من إيمانه الشديد بقوميته اليهودية واعتزازه بقيامه على «صولجان يهوذا» فإنه لم يستطع أن يزعم أنه من نسل سامى وهو يرجع أصل اليهود إلى ابن نوح الثالث يافث ولا يرجعه إلى سام.

وبعد هذه النسبة يذكر يوسف فى اختصار بعض الفتوح التى قام بها أجداده وأوصلتهم إلى الدانوب، ثم يروى بالتفصيل قصة دخول بولان فى اليهودية ثم يدلى بهذه العبارة ذات المعنى:

«وبعد هذه الحوادث أصبح أحد حفدة بولان ملكًا وكان اسمه غبديه، وكان شجاعًا، وقورًا، أصلح الأحكام، ودعم القانون على أساس من السنة ومألوف العادة، وأقام المعابد والمدارس، وجمع جمعًا

من حكماء إسرائيل، وأغدق عليهم الذهب والفضة، وجعلهم يفسرون الكتب المقدسة الأربعة والعشرين، والمشنا، والتلمود، وترتيب الطقوس التي تتلى».

وهذا يدل على أنه حدث بعد بولان بعدة أجيال، نهضة دينية أو إصلاح، وربما اقترن هذا الإصلاح بانقلاب على نحو ما تصور الأستاذ ارتامونوف، ويبدو أن دخول الخزر في اليهودية تم على عدة مراحل. ونحن نذكر أن الملك بولان طرد «السحرة والمشركين» قبل أن يظهر له الملك وأقام العهد مع «الإله الحق» قبل أن يقرر إله اليهود هو أم النصراري أم المسلمون. وأغلب الظن أن تهوؤ الملك بولان واتباعه كان مرحلة وسطاً أخرى، وأنهم اعتنقوا صورة بدائية من اليهودية تقوم على التوراة دون سواها مع استبعاد التلمود وكل الكتب الربانية والشعائر المستقاة منها. وهم في ذلك يشبهون القرانيين وهم فرقة كبيرة يرجع أصلها إلى القرن الثامن الميلادي في بلاد فارس، وانتشرت بين اليهود في جميع أرجاء العالم وخاصة في «بلاد الخزر الصغرى» في أثناء الإصلاح الديني الذي قام به عبديه. وهذه النقطة لها بعض الأهمية لأن مذهب القرانيين قد بقي فيما يظهر ببلاد الخزر حتى النهاية، ولا تزال قرى من اليهود القرانيين المتحدثين بالتركية توجد في العصور الحديثة.

وبعد أن ذكر يوسف الإصلاحات الدينية التي قام بها عبديه أورد قائمة بأسماء خلفائه. ثم حاول أن يجيب عن أسئلة حسداى

عن حجم مملكة الخزر وطبيعة أرضها، وزعم يوسف أنه كان يجمع الجزية من سبع وثلاثين أمة، وفي هذا مغالاة، إلا أن دنلوب يقول: إن تسع أمة منها كانت فيما يظهر قبائل تعيش في قلب الخزر، أما الثمانى والعشرون الأخرى فتنتطبق على قول ابن فضلان بأنه كانت له خمس وعشرون زوجة كل منها ابنة ملك من الخاضعين. ولا يتحدث يوسف عن زوجات له كثيرة وإنما يتحدث عن زوجة واحدة وجواربها وخصيانها.

وخص الملك تاريخ ظهور المسيح بالفقرة التالية:

إن عيوننا على حكماء أورشليم وبابل، ونحن وإن كنا نعيش بعيداً عن صهيون، فإننا قد سمعنا مع ذلك بأن الحسابات مخطئة لوفرة الآثام ونحن لا نعلم شيئاً وإنما الباقي هو الذى يعلم كيف يتولى الحساب، وليس لدينا ما نستند إليه إلا نبوءات دنيال ونسال الله أن يعجل بخلصنا!! وختم الملك يوسف رسالته بالإجابة عن طلب حسداى الدخول فى خدمة ملك الخزر!!

ويظهر يوسف بمظهر الحامى لخلافة بغداد من غارات النورمان الروس. وقد يبدو ذلك منه بعيداً عن الكياسة، لأن الخلافة الأموية فى قرطبة (وكان حسداى فى خدمتها) كان بينها وبين الخلافة العباسية فى بغداد عداوة شديدة.

ومن المصادر العبرية الأخرى نجد «وثيقة كمبردج» (سميث بذلك لأنها محفوظة الآن فى مكتبة هذه الجامعة) وقد كُشف

عنها في أواخر القرن الماضي هي ووثائق أخرى لا تقدر بمال في كنيس اليهود بالقاهرة. والوثيقة حالتها سيئة، وهي رسالة، أو نسخة من رسالة، من مائة سطر بالعبرية أو نحو ذلك، أولها مفقود وآخرها مفقود، ولذلك فإن من المستحيل أن نعرف من كتبها وإلى من كتبت. وجاء فيها ذكر الملك باعتباره معاصراً ويشار إليه بمولاي، وإلى بلاد الخزر ببلادنا، ونخرج من ذلك بأن الرسالة كتبها يهودى خزرى من رجال البلاط أيام الملك يوسف، أى إن هذه الوثيقة معاصرة للرسائل الخزرية.

وهذه الرسالة تتضمن خيراً آخر أسطورياً عن اعتناق الخزر لليهودية، ولكن مغزاها الأول سياسى. فكاتبها يتحدث عن هجوم سنة اللان على بلاد الخزر بتحريض البوزنطيين.

وبعد حوالى قرن من الرسائل الخزرية والتاريخ المزعوم لوثيقة كمبردج، كتب يهوذا هاليفى كتابه الذى كان مشهوراً وهو «كوزارى» أى الخزر ويعده هاليفى (١٠٨٥ - ١١٤١م) بعامة أعظم شاعر عبرى فى إسبانيا. وقد كتب هذا الكتاب بالعربية وترجم من بعد إلى العبرية.

وكان هاليفى صهيونياً لقى ربه فى حجة لبيت المقدس، وكتابه الذى كتبه قبل أن يموت بسنة واحدة رسالة فلسفية تبسط الرأى الذى يقول: إن الأمة اليهودية هى الوسيط الوحيد بين الله وسائر البشر، وسوف تعتنق الأمم جميعاً الدين اليهودى فى آخر

الزمان. ويبدو دخول الخزر فى اليهودية علامة على هذا الحادث الذى ليس بعده حادث. والكتاب بالرغم من عنوانه لا يقول إلا القليل عن بلاد الخزر نفسها، وإنما يصلح فى جوهره أساساً لخبر أسطورى عن اعتناق الخزر لليهودية أى هو يحكى عن الملك والملك والحبر اليهودى.. إلخ، ويتحدث عن المحاولات الفلسفية التى دارت بين أنصار الديانات الثلاث.

على أنه لا توجد إلا إشارات واقعية قليلة تدل على أن هاليفى لم يقرأ الرسائل الخزرية بين حسداى والملك يوسف أو أنه كانت بين يديه مصادر أخرى عن بلاد الخزر. ثم إن هاليفى يذكر آخر الأمر فى موضعين من كتابه أن تاريخ دخول الخزر فى اليهودية وقع منذ أربعين سنة، وفى سنة ٤٥٠٠ (من التقويم اليهودى) وهذا يشير إلى سنة ٧٤٠م، وهو أكثر التواريخ احتمالاً.



ويصدق هذا أيضاً على الرحالة الألمانى اليهودى المشهور الحاخام بتاخيا الراتسبونى الذى زار أوربا الشرقية وآسيا الغربية بين سنتى ١١٧٠ و ١١٨٥م. والظاهر أن وصف رحلته حول العالم كتبها تلميذ له، وهو يروى كيف روع الحاخام الطيب لدى رؤيته الشعائر البدائية لليهود الخزر شمالى القرم، ونسب ذلك إلى اتباعهم لزندقة القرانيين.

وهو يذكر أيضا أنه رأى، وهو فى بغداد، رسل مملكة الخزر يبحثون عن المحتاجين من اليهود القادمين من الجزيرة ومن مصر «ليعلموا أولادهم التوراة والتلمود».

وثمة عدد قليل من الرحالة الغربيين الذين تجشموا الرحلة إلى القولجا، وقد ذكروا أنهم صادفوا اليهود الخزر فى جميع الحواضر الكبرى للعالم المتحضر. وصفوة القول أن المرء يحس فى المصادر العبرية التى انتهت إلينا عن دخول الخزر فى اليهودية آثارا هى مزيج من الغيرة والشك والحيرة. ذلك أن أمة محاربة من اليهود الترك كانت تبدو فى نظر الأحرار عجيبة كالحیوان الخرافى وحيد القرن المختن. فاليهود الذين مضى عليهم ألف سنة مشردين بلا ماوى قد نسوا ما يكون عليه حالهم إذا تولى أمرهم ملك وكانت لهم أرض خاصة بهم. ولذلك فإن المسيح المنتظر كان أقرب إلى الواقع عندهم من الخاقان.



والحاقا بما ذكرته المصادر العربية والعبرية عن تهود الخزر يجب أن نذكر أن أقدم مصدر مسيحي فيما يظهر يأتى قبل هذه المصادر. ففي تاريخ سابق على سنة ٨٦٤م كتب القس ستفالى كريستيان دروتمار رسالة باللاتينية ذكر فيها أنه «يعيش قوم تحت قبة السماء فى أقطار لا يوجد فيها مسيحيون، واسم هؤلاء

القوم يا جوج وما جوج، وهم من الهون، ومن بينهم واحد يقال له الخزرى، وهو مختن ويتبع اليهودية بجميع ما فيها».

وقراءة ذلك الوقت كتب دروتمار ما علمه من زندقة الخزر اليهود، وكان هذا الرجل مبعوثاً مسيحياً مشهوراً أرسله الإمبراطور البوزنطى ليهدى الخزر إلى المسيحية، ولم يكن دروتمار باقل شأناً من القديس سيريل «نبي الصقالبة» وهو الذى يقال: إنه وضع الحروف الهجائية السيريلية. وقد وكل إليه الإمبراطور ميخائيل الثالث هو وأخيه الأكبر القديس ميثوديوس أن يقوموا بهذه المهمة وغيرها من المهام الكنسية نزولاً على نصيحة البطرق فوتيوس الذى كان فيما يبدو من أصل خزرى.